مفهوم الإمامة فی فکر ابن خلدون وقفات و تأملات

پدیدآورده (ها) : التمیمی،هادی عبدالنبی
میان رشته ای :: المنهاج :: خریف 1427 - العدد 43
از 246 تا 261
آدرس ثابت : http://www.noormags.ir/view/fa/articlepage/712649

دانلود شده توسط : رسول جعفریان
تاریخ دانلود : 10/04/1395

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) جهت ارائهٔ مجلات عرضه شده در پایگاه،مجوز لازم را از صاحبان مجلات، دریافت نموده است، بر این اساس همه حقوق مادی برآمده از ورود اطلاعات مقالات، مجلات و تألیفات موجود در پایگاه، متعلق به "مرکز نور" می باشد. بنابر این، هرگونه نشر و عرضه مقالات در قالب نوشتار و تصویر به صورت کاغذی و مانند آن، یا به صورت دیجیتالی که حاصل و بر گرفته از این پایگاه باشد، نیازمند کسب مجوز لازم، از صاحبان مجلات و مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) می باشد و تخلف از آن موجب پیگرد قانونی است. به منظور کسب اطلاعات بیشتر به صفحه قوانین و مقررات استفاده از پایگاه مجلات تخصصی نور مراجعه فرمائید.

پایگاه مجلات تخصصی نور

www.noormags.ir

مفهوم الإمامة في فكر ابن خلدون

وقفات وتأملات

د. هادي عبد النبي التميمي(*)

مقدّمة

يمتاز الإسلام عن الديانات السماوية الأُخرى بالشمولية، فهو جاء لكل الإنسانية على اختلاف أجناسها وشعوبها، لذلك جاءت أحكامه وتشريعاته عامة شاملة لكل نواحي الحياة، ومن أبرز القضايا التي عالجها الإسلام كان موضوع الإمامة والخلافة. هذا الموضوع الحيوي الذي اختلف في تفسيره وأحكامه فقهاء المذاهب الإسلامية أيّما اختلاف، ومن الذين كان لهم فهم خاص لمفهوم الإمامة المؤرخ المغاربي عبد الرحمن بن خلدون المتوفى عام (٨٠٨هـ)، وكان لا بدّ لي قبل أن أبدأ في عرض أفكاره الخاصة أن أتطرق إلى ترجمة مختصرة لحياته، لما لها من تأثير على فهم تكوين شخصيته وفهمه للأُمور، ومن ثم تقديم عرض موجز لمفهوم الإمامة في الإسلام، ثم تسليط الضوء على مفهوم الإمامة في فكر ابن خلدون.

أولاً ـ التعريف بابن خلدون

هو عبد الرحمن[١] أبو زيد[٢] ولي الدين[٣] بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن[٤] بن خلدون[٥]، ويختصر ابن خلدون التعريف بنفسه فيقول: «يقول العبد الفقير إلى الله تعالى الغني بلطفه عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي وفقه الله»[٦]، ويبدو

(*) أستاذ مساعد في الجامعة الإسلامية في النجف الأشرف، من العراق.

www.noormags.ir

انه اكتسب كنية أبي زيد من اسم ابنه الأكبر حسب ما جرت عليه عادة العرب. وأما لقب ولي الدين فقد لقّب به بعد توليه القضاء في مصر[٧]، إلاّ أن هذه النعوت قد مُحيت معالمها أو كادت بمرور الأيام حتى أصبح يُعرف بابن خلدون[٨].

واُسرة ابن خلدون عربية يمانية[٩]، من حضرموت[١٠]، ينتهي نسبها إلى وائل ابن حجر[١١]، وهو معروف وله صحبة، ذكر بأنه وفد على الرسول ﷺ فأجلسه على ردائه ودعا له ولولده بالبركة إلى يوم القيامة[١٢]. أما جده خالد المعروف بـ(خلدون)، فقد دخل الأندلس حين فتحها[١٣]، ولم تظهر أهمية هذه الأُسرة إلاّ في نهاية القرن الثالث الهجري في عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأُموي (٢٧٤هـ-٣٠٠هـ)[١٤].

ولد ابن خلدون في تونس في شهر رمضان سنة ٧٣٢هـ وتربى في حجر والده الذي كان معلمه الأول[١٥]، ثم بدأ يحفظ القرآن الكريم على يد اُستاذه الأول أبو عبد الله بن سعد الأنصاري فختم القرآن وحفظه[١٦]، وظل في محل ولادته حتى انتشار الطاعون في معظم أنحاء العالم سنة ٧٤٩هـ والذي أهلك والديه وجميع من كان يأخذ عنهم العلم من شيوخه، وهاجر معظم العلماء الذين افلتوا من ذلك الوباء فتعذر على ابن خلدون متابعة الدرس[١٧]، وقد وصف ابن خلدون تلك السنة وما عملته بالعلماء فقال بأنها: «طوت البساط بما فيه»[١٨]، مما دفع به إلى تغيير مجرى حياته، فاشتغل بالوظائف العامة، إذ أصبح كاتباً لديوان الرسائل وهو لم يبلغ العشرين من عمره[١٩].

وفي عام٧٥٥هـ استدعاه أبو عنان فارس المريني إلى مدينة فاس في المغرب الأقصى، فقلده منصب كاتب السر قبل أن يغضب عليه ويسجن لمرتين، ولم يُطلق سراحه في المرة الثانية إلاّ بعد وفاة أبي عنان، إذ أطلق السلطان الجديد أبو سالم سراحه وعينه قاضي القضاة[٢٠].

قصد ابن خلدون سبته في طريقه إلى الأندلس ليستقر أخيراً في غرناطة في بلاط بني الأحمر[٢١]، واتصل هناك بالوزير لسان الدين بن الخطيب رغم أن الود لم يدم بينهما، فرحل إلى بجاية وعمل حاجباً لأميرها[٢٢]، واشتغل بالتدريس

www.noormags.ir

كذلك[٢٣]، إلاّ أن ابن خلدون لم يثبت في بجاية، إذ بدأ يتقلب في ولائه لأُمراء الأندلس، وشعر ابن خلدون بزهد الأُمراء في صحبته، فقرر ترك صداقتهم[٢٤] والاعتكاف في قلعة ابن سلامة والتي مكث فيها أربع سنين[٢٥].

وفي الفترة التي قضاها ابن خلدون معتكفاً، تفرغ للدراسة والتأليف[٢٦]، ففي هذا الجو الهادئ كتب ابن خلدون مقدمته والتي لم تأخذ من وقته كثيراً، إذ أتمها في خمسة شهور، وهذه السرعة في إتمام هذا الجهد دفعه إلى أن يبدأ بكتابة التأريخ[٢٧]، فكتب كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)[٢٨] متنقلاً بين منفاه الاختياري في قلعة ابن سلامة وتونس حيث مكتباتها الفاخرة بعد أن آزره سلطانها وشجعه على كتابة تأريخه، لكن الدسائس عملت عملها في تعكير صفو العلاقة بينه وبين سلطان تونس، فانتحل الحج عذراً لدى السلطان[٢٩]، وغادر مسقط رأسه مودعاً من قبل الأصدقاء والتلاميذ والأعيان[٣٠].

وتوقف ابن خلدون وهو في طريقه إلى الحج في القاهرة فألقى بعض المحاضرات في الجامع الأزهر[٣١]، فأُعجب به الظاهر برقوق سلطان مصر الذي أكرم وفادته وعينه سنة٧٨٦ هـ في منصب تدريس الفقه المالكي[٣٢]، ثم عُين قاضياً لقضاة المالكية في مصر، ثم عُين قاضي قضاة مصر[٣٣]، وخلع عليه لقب ولي الدين[٣٤].

وأثناء إقامته في مصر سافر إلى بلاد الشام والتقى بتيمورلنك وحاول مهادنته[٣٥]، وفي عام ٧٨٩هـ حج إلى بيت الله الحرام وعاد في ٧٩٠هـ إلى مصر لينشغل بالتدريس والقضاء[٣٦]، ولم ينقطع خلالها عن مراجعة مؤلفه التأريخي ومقدمته، فوسع أبحاثه المتعلقة بأخبار الدول الإسلامية في المشرق وتأريخ الدول القديمة والدول النصرانية والأعجمية، كما أضاف بعض الفصول والفقرات إلى المقدمة[٣٧].

وكما ولد ابن خلدون في شهر رمضان فقد توفي في شهر رمضان عام ٨٠٨هـ[٣٨]، ودفن بمقبرة الصوفية في القاهرة[٣٩].

ولعل أبرز ما تميز به ابن خلدون خلال سني عمره، معالجته المظاهر

www.noormags.ir

الاجتماعية وواقع العمران البشري، حتى عدّه البعض المنشئ الأول لعلم الاجتماع لدى العرب. أما التاريخ فرأيه فيه أنه «رواية بسيطة للحوادث ولكنه وصف للعلاقات الاجتماعية»(٤٠)، إذ عُدّ ابن خلدون أحد المجددين في التاريخ. فقد حاول تخليص الروايات مما خالطها من مبالغات الكتاب والرواة، وما نقلوه وفق أهوائهم، ولكنه وقع في نفس أخطائهم في تغليب هوى النفس، ولعل رسوخه في الفقه المالكي كان أحد أسباب ذلك.

ثانياً ـ مفهوم الإمامة في الإسلام

١ ـ الإسلام ونظام الحكم

جاء الإسلام مختلفاً عن باقي الديانات السماوية الأُخرى وامتاز بالشمولية، فهو جاء لكل البشرية على اختلاف أجناسها وشعوبها وألوانها ﴿**وما أرسلناك إلاّ كافةً للناس بشيراً ونذيراً**﴾(٤١)،﴿**وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين**﴾(٤٢)، لذلك جاءت أحكامه وتشريعاته عامة شاملة لكل نواحي الحياة، فلم تقتصر على بيان العقيدة الصحيحة، ولا على النظام الأخلاقي المثالي الذي يقوم عليه المجتمع، بل أضاف إلى هذا وذاك الشريعة المحكمة العادلة، ولعلنا نجد في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تتعلق بالحكم بوجه عام، والعدل حسب شريعة الله المنزلة بشكل خاص﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم**﴾(٤٣)، أو قوله تعالى: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بالناس بما أراك الله**﴾(٤٤)، أو قوله تعالى: ﴿**ومن لم يحكم بما انزل الله فأُولئك هم الكافرون**﴾(٤٥)، أو﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾ (٤٦)، أو ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾(٤٧).

ولعل من البديهي أن شريعة كهذه لا بدّ وأن تكون قد جاءت بما لا بدّ منه لقيام الدولة على أُسس ومبادئ مقبولة ومعقولة تفي بحاجات أي مجتمع أو أُمّة في كل زمان ومكان «لإقامة الحياة على التوازن وإعطاء الحقوق في كل ناحية ووجهة أكان ذلك بين الأفراد والجماعات أم بين جوانب الحياة المعنوية والمادية»(٤٨)، وفي آيات

www.noormags.ir

القرآن الكريم دلالات واضحة لهذا المفهوم، كقوله تعالى: ﴿**وشاورهم في الأمر**﴾[٤٩] أو﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾[٥٠]، أو قوله تعالى: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾[٥١]، كما أن هناك أدلة واضحة لذلك بما ورد في السنة النبوية من ألفاظ (أمير) (وإمام)، وقد أقام الرسول الكريم ﷺ دولة فعلاً، فكان بالإضافة إلى حمله الرسالة، كان إمام المسلمين وأميرهم ورئيس دولتهم، يولّي الولاة، ويعيّن القضاة، ويعقد الألوية، ويرسل الجيوش، ويجمع الزكاة والغنائم ويوزعها في مصارفها، ويقيم الحدود، ويعقد العهود، ويرسل الرسل والوفود إلى الملوك، وهذه كلها من أعمال السلطة والحكم، ولو كان الإسلام بمعزل عن الحكم لما فعل الرسول ﷺ ذلك، ولتركه لغيره أن يقوم به[٥٢].

إن ما تقدم يدل بشكل جلي أن للإسلام نظام حكم خاص به، فليس الإسلام دين فقط، بل هو دين ودولة معاً، فكما للإسلام عقائد، فإنه يجب إقامة رئيس للدولة يكون حاكماً لها، على أن يجري في حكمه وتدبيره وسياسته لأُمور الدنيا على ما جاء به القرآن والسنة النبوية من مبادئ وأُصول[٥٣]، وقد سهل الإسلام هذا الأمر عندما بيّنت الشريعة مهمة الحاكم بياناً شافياً، وحددت حقوقه وواجباته تحديداً دقيقاً، فمهمة الحاكم في الشريعة الإسلامية أن يخلف رسول الله ﷺ في حراسة الدين، وسياسة الدنيا[٥٤].

ولما كان من أهم مقومات الحكم في الإسلام هو وجود الخليفة أو الإمام بعد الرسول ﷺ، وهو ما يمثل الخط الفاصل بين مرحلتين تأريخيتين، لذلك سأتناول هذه الموضوعة بشيء من التفصيل، رغم أن «أصعب ما يواجه الباحث المؤرخ هو أن يضع خطاً حاسماً يفصل بين مرحلتين تأريخيتين لمجتمع ما، فأن تحول المجتمع من حالة لأُخرى بطيء وتدريجي، لذلك من العسير تعيين وحدة زمنية والقول بأنها خاتمة عهد وبداية عهد جديد»[٥٥].

٢ـ الخلافة والإمامة

يطلق لفظ الخليفة على من استخلفه غيره. وعلى من خلف غيره في أمر من الأُمور[٥٦]، والخلافة في اللغة من(خلف)، وهو (القرن بعد القرن)[٥٧] إذا ما جاء

www.noormags.ir

بعده، ويقال: خلف فلانٌ فلاناً إذا قام مقامه[٥٨]، وخلفه خلافه... أي بقي بعده، والخليفة السلطان الأعظم[٥٩].

أما الخلافة اصطلاحاً، فهي «عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص للرسول ﷺ في إقامة قوانين الشريعة، وحفظ حوزة الملة على وجه يجب اتّباعه على كافة الأُمّة»[٦٠]، أو هي رئاسة عامة في أُمور الدين والدنيا خلافة عن النبي ﷺ[٦١]، أو هي لفظ يطلق على من ينوب عن الغير أما لغيبة المنوب عنه أو لموته أو لعجزه، والخلائف والخلفاء جمع خليفة[٦٢].

وعلى هذا المعنى سار القرآن الكريم في استعماله لكلمة الخليفة والخلائف والخلفاء[٦٣]، كما في قوله تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**﴾[٦٤]، أو قوله تعالى: ﴿**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض**﴾، أو قوله تعالى: ﴿**هو الذي جعلكم خلائف في الأرض**﴾[٦٥]، أو قوله تعالى: ﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح**﴾[٦٦][٦٧].

أما الإمامة لغةً، فقد أتت من (أمّ) وهي أصل الشيء وعماده، وللقوم رئيسهم[٦٨]، ومنها يأتي لفظ الإمام وهو الذي يُقتدى به والمتّبع[٦٩].

أما الإمامة اصطلاحاً، فتطلق على المتقدم على قومه في القيادة والرئاسة والمتبوعية، وبذلك استحق من يتقدم القوم للصلاة بهم أن يسمى إماماً؛ لأنه يؤمهم أي يتقدمهم[٧٠].

وعلى هذا المعنى سار القرآن الكريم في استخدام كلمة الإمام، كما في قوله تعالى: ﴿**إني جاعلك للناس إماماً**﴾[٧١]، أو قوله تعالى: ﴿**ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة**﴾[٧٢]، أو قوله تعالى: ﴿**واجعلنا للمتقين إماماً**﴾[٧٣]، أو قوله جلّ وعلا: ﴿**يوم ندعو كل أُناسٍ بإمامهم**﴾[٧٤]، وإلى آخر ما ورد في القرآن الكريم من استخدام لكلمة الإمام.

وعلى ما يبدو أن الشريعة الإسلامية أرادت الابتعاد بالمفهوم الإسلامي للدولة ورئاستها عن النظام الملكي بمفهومه القديم عند الأُمم الأُخرى من الفرس والرومان، المختلف اختلافاً أساسياً عن المفهوم الإسلامي الجديد، لذلك اختيرت ألفاظ (الإمام)،

www.noormags.ir

و(الخليفة)، و(أمير المؤمنين).

وإذا كان علماء اللغة اتفقوا على هذه المعاني التي تشير إليها كلمتا الإمام والخليفة، فأن علماء الكلام وأنصارهم قد اختلفوا في كون هاتين الكلمتين تذهبان إلى معنى واحد معين، إذ يقول البعض: إن الإمامة «موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»(٧٥)، فيما قال آخرون: بأن الخلافة هي رئاسة عامة في أُمور الدين والدنيا لشخص من الأشخاص نيابة أو خلافة عن النبي ﷺ(٧٦)، أو هي «حمل الكافة على النظر الشرعي في مصالحهم الأُخروية والدنيوية الراجعة إليها»(٧٧)، وفي هذا السياق فإن «الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة»(٧٨)، فيما ربط رأي آخر «بين الخلافة باعتبارها الإمامة الكبرى والصلاة باعتبارها إمامة صغرى»(٧٩).

وعلى الرغم من أن المتمعن في كلمتي الخليفة والإمام سيجد أنهما تتجهان نحو مقصد واحد، إذ إن الرئاسة أو القيادة هي المعنى الجامع الذي يمكن تفسير اللفظين به أو اتفاقها عليه(٨٠)، إلاّ أننا عندما نتبع مجال نفوذ هذه القيادة أو الرئاسة في الميدان العملي، فأننا نلمس ما يفصل إحدى الكلمتين عن الأُخرى، إذ إننا سنجد بأن لكل لفظة منهما أُطراً وأبعاداً مختلفة، فالإمامة كما تشعرنا النصوص الدينية إنما هي (رئاسة دين)، والخلافة كما تشعرنا تلك النصوص (رئاسة دولة).

وبذلك أصبح الإمام لدى مفكري الإسلام على مختلف مذاهبهم هو صاحب الحق الشرعي، بينما يشير لفظ الخليفة إلى صاحب السلطة الفعلية(٨١).

ومع هذا الاختلاف في مجال التطبيق، فإننا نؤمن ـ سيراً وراء النصوص ـ أن العنوانين لا بدّ من اجتماعها في شخص واحد؛ لأننا لا نقر إسلامياً فكرة فصل الدين عن الدولة.

٣ ـ حكم إقامة الخليفة

بعد أن توصلنا إلى أن الإسلام قد وضع الأصول والمبادئ العامة لنظام الحكم، فمن البديهي أن يوجب إقامة خليفة ليكون على رأس الحكم، يدير شؤونه ويرعى مصالح الأُمّة من خلال هذا المنصب، وهو ما ذهب إليه المسلمون على اختلاف

www.noormags.ir

مذاهبهم، وبذلك فقد أصبح هنالك وجوب بإقامة الإمام أو الخليفة على الأُمّة شرعاً، واستدل أغلب فقهاء المسلمين على نصوص وردت في القرآن الكريم والسنة والإجماع والعقل، فمن القرآن الكريم ورد قوله تعالى: ﴿**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم**﴾[٨٢]، والمراد بأُولي الأمر الخلفاء والأُمراء، وعليه ذهب عدد كبير من المفسرين[٨٣]، أما من السنة النبوية فقول رسول الله ﷺ: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[٨٤]، أو قوله ﷺ: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية»[٨٥]، وأما الإجماع فقد أجمع أعلام الأُمّة على اختلاف مذاهبهم على وجوب إقامة رئيس أعلى للدولة الإسلامية، يجمع كلمة الأُمة، ويرعى شؤونها الدينية والدنيوية[٨٦]، على اختلافهم في التسمية من خليفة أو إمام.

وأما العقل، فان الشارع أمر بإقامة الحدود، وسد الثغور، وتجييش الجيوش للجهاد، وكثير من الأُمور المتعلقة بحفظ النظام[٨٧]، وهو ما نرى بأنه لا يقوم إلاّ بوجود من يكون مسؤولاً عن هذه الأُمور، وهو ما لا يقوم به في التشريع الإسلامي سوى الخليفة أو الإمام.

ثالثاً ـ مفهوم الإمامة في فكر ابن خلدون

لا يمكن التعرف على مفهوم ابن خلدون للإمامة بصورة جلية من دون التعرف على مفهومه للشيعة، بوصفهم الفئة التي دعت إلى مفهوم الإمامة، والتي عرفتها على أنها «جزء متمم للرسالة، واستمرار لوجودها، والعقل قاض بضرورتها؛ لأنها لطف، وكل لطف واجب على الله تعالى، على حد تعبير المنهج العقلي في علم الكلام»[٨٨].

فالشيعة لغة من (شيع)، وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، وتشيع الرجل: ادعى دعوة الشيعة[٨٩]، «وكل قوم أمرهم واحد يتّبع بعضهم رأي بعض فهم شيع»[٩٠].

أما الشيعة اصطلاحاً، فإنه «يطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع عليّ وبنيه عليهم السلام»[٩١]، على أن يكون (هذا الابن) من نسل النبي ﷺ عن طريق ابنته فاطمة عليها السلام وزوجها عليّ عليه السلام[٩٢].

ويذهب ابن خلدون في توصيف مذهب الإمامية فيقول: يذهبون إلى أن الإمامة

www.noormags.ir

ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأُمّة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفاله وتفويضه إلى الأُمّة، بل يجب عليه تعيين الإمام، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر(٩٣)، ثم يضيف قائلاً: واستدل هؤلاء على مذهبهم بأن النظر غير كاف في اكتساب المعارف، بل لا بدّ من مَعلَم إلهي تُعرف بواسطته الشريعة، والعلوم والمعارف كافة.. على اعتبار أنه وحده يسبر باطن النصوص الدينية، وهو وحده يميز الحق من الباطل، وعلى ذلك وجب على الله أن يقيم خليفة يرشد الناس إلى معرفة الشريعة ويهديهم سواء السبيل(٩٤).

وأصغر الأدلة التي يقدمونها يرجع إلى البديهية القائلة بأنه لو كان للناس رئيس يرجعون اليه في أُمور دينهم ودنياهم لكانوا أقرب إلى الطاعة وأبعد عن المعصية(٩٥).

أما أكبر أدلتهم على ذلك، فإنه لو لم يكن واجباً على الله لكان ناقضاً لغرضه من تكليف العباد، على اعتبار أن الإمام لطف وكل لطف واجب على الله تعالى(٩٦).

فأما أصغر الأدلة فمعلومة للعقلاء، إذ إن العلم الضروري حاصل بأن الناس متى ما كان لهم رئيس يمنعهم عن التغالب والتهاوش، ويصدهم عن المعاصي، كانوا أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد والمعصية(٩٧).

وأما أكبرها فالدليل على وجوب اللطف أن إقامة الإمام واجب على الله ليعرف الناس به وبشرعه، فإذا لم يقمه فليس له تعالى على الناس حجة، أي أن وجود الإمام هو حجة لله على عباده(٩٨).

ثم ينتقل ابن خلدون إلى قوله في اعتقاد الإمامية: «إن علياً عليه السلام هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة، وتنقسم هذه النصوص عندهم إلى جلي وخفي»(٩٩).

فمن الأُمور الجلية نكتفي بهذا الحديث عنه، وهو ما قاله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: من يبايعني على روحه وهو وصيّ ووليّ هذا الأمر من بعدي، فلم يبايعه إلاّ عليّ(١٠٠).

ويعرف هذا الحديث في المصادر التاريخية بـ(حديث الدار)، وخلاصته أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما نزل قوله تعالى: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾(١٠١)، دعا بني عبد

www.noormags.ir

المطلب كافة، وعرض عليهم الدعوة بعد مأدبة أقامها لهم، فقال لهم: أيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم ؟ فأحجم القوم وقام عليّ عليه السلام، فقال الرسول صلى الله عليه وآله لقومه: إن هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا، فقام القوم يتضاحكون، وقالوا لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع[١٠٢].

وأما من الأُمور الخفية التي يحتج بها الإمامية فنكتفي بهذه الرواية التي نقلها ابن خلدون، إذ يذكر بأن الرسول صلى الله عليه وآله بعث علياً عليه السلام لقراءة سورة براءة في الموسم حين أُنزلت، فإنه بعث بها أولاً أبا بكر رضي الله عنه، ثم أُوحي إليه ليبلغها رجل منك أو من قومك، فبعث علياً عليه السلام، وهذا ما يدلل على رأي الإمامية بتقديم عليّ عليه السلام، حيث لم يُعرف أنه قدّم أحداً على عليّ أبداً[١٠٣].

ويضيف ابن خلدون: «إن هذه النصوص تدل على تعيين عليّ وتشخيصه، وكذلك تنتقل منه إلى من بعده وهؤلاء هم الإمامية»[١٠٤]، وهو طرح لما قالته الإمامية من أن الحديث النبوي أكد على أن الأئمة يتعاقبون اثني عشر لا يزيدون ولا ينقصون[١٠٥]، ودليلهم – أي الإمامية – على صحة الحديث إضافة إلى وروده في كتبهم، وروده في صحيح البخاري من ثلاثة طرق[١٠٦]، وفي صحيح مسلم من تسعة طرق[١٠٧]، وفي سنن الترمذي من طريق واحد[١٠٨]، ونص الحديث: «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة، ويكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش»[١٠٩].

ويبدو أن ابن خلدون طعن في كل المصادر والطرق التي تحرّت صدق هذا الحديث فيها؛ لأنه قال في معرض حديثه إن ذلك من اعتقاد الإمامية، وإنهم يعتمدون على نصوص أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه[١١٠]، فهل كل المصادر نقلت حديثاً موضوعاً مطعوناً في طريقة نقله؟

ثم يقسّم ابن خلدون مذاهب الإمامية إلى أقسام. فمنهم الزيدية، وهم لا يتبرؤون من الشيخين مع تفضيلهم لعليّ عليه السلام، ولكنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل[١١١]، ومنهم الكيسانية نسبة إلى كيسان مولى محمد بن الحنفية، ومنهم الغلاة الذين قالوا بأُلوهية الأئمة، وقد حرّقهم عليّ عليه السلام بالنار[١١٢]، ومنهم من

www.noormags.ir

قال بالتناسخ، ومنهم الواقفية الذين يقفون عند أحد الأئمة لا يتجاوزونه(١١٣).

ويأخذ ابن خلدون بسرد ما وصل إليه كل من أصحاب هؤلاء المذاهب، وفي كل واحدة من مقالاته تلك، على حد قوله، للشيعة اختلاف كثير إلاّ أن هذه هي أشهر مذاهبهم والتي تم ذكرها، ثم أحال من يريد استيعابها ومطالعتها ومعرفة المزيد من تفاصيلها إلى كتاب الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني(١١٤).

ومن خلال ما ذكره ابن خلدون في مذاهب الشيعة، وفي حكمه في الإمامة، فإن مفهومه لهذه القضية واضح لا لبس فيه، وهو إنكاره لمذهبهم، ومحاولته الحطّ من شأنهم، وما نسبه لهم من وضع الأحاديث المطعون في روايتها، أو التأويل الفاسد للأحاديث النبوية التي لا يعرفها جهابذة السنة ونقلة الشريعة، كما يقول(١١٥)، أو وصفه للإمامية وخاصة الاثني عشرية منهم بقوله: «وقال مثله غلاة الإمامية وخصوصاً الاثني عشرية»(١١٦).

ويستدل ابن خلدون على غلو الشيعة الاثني عشرية بما قالوه في قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف إذ يقول: «يزعمون أن الثاني عشر من أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكري ويلقبونه المهدي دخل في سرداب بدارهم في الحلة، وتغيب حين اعتقل مع أُمّه وغاب هناك، وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلاً، يشيرون بذلك إلى الحديث الواقع في كتاب الترمذي في المهدي، وهم الآن ينتظرونه ويسمونه المنتظر، ويقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب، وقد قدموا مركباً فيهتفون باسمه ويدعونه إلى الخروج حتى تشتبك النجوم، ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية، وهم على ذلك لهذا العهد»(١١٧).

لقد أشار ابن خلدون إلى ما قاله الترمذي في الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف نقلاً عن الرسول: «لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي»(١١٨)، وفي مكان آخر عن الرسول صلى الله عليه وآله: «أنه في أُمتي المهدي»(١١٩)، وكان على ابن خلدون أن يطّلع على مسند الإمام أحمد الذي نقل مئة وستة وثلاثين حديثاً بإسناده عن الرسول صلى الله عليه وآله فيما يرتبط بالمهدي عجل الله فرجه الشريف وأوصافه وعلامات ظهوره(١٢٠)، ليتأكد من أن هذا الأمر ليس من اختلاقات الإمامية أو من بنات

www.noormags.ir

أفكارهم، بل نقله محدّثون ومؤرخون ثقات[١٢١]، كان هو من بينهم، ولكنه على ما يبدو نسي أو تناسى متعمداً أنه كان قد نقل حديث الرسول ﷺ عن الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف في كتابه بالنصّ القائل: «الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[١٢٢].

لقد كان على هذا المؤرخ الفذ أن لا ينزلق إلى مهاوي العصبية والتعصب، والمذهبية والتمذهب، وهو يتناول قضية في غاية الخطورة وهي قضية الإمامة أو الخلافة، والتي تشكل قمة السلطة في نظام الحكم الإسلامي.

* * *

الهوامش

(١) ابن خلدون، المقدمة: ص٣؛ موافي، منهج النقد التاريخي: ص ٢٦٨؛ محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة ١: ١٤.

(٢) حلاق، مقدمة في مناهج البحث التأريخي: ص٣٠٧؛ شركة ترادكسيم، عبد الرحمن بن خلدون ١٣ : ٢٤٨٠.

(٣) الموسوعة الفلسفية المختصرة، نقلها عن الانجليزية فؤاد كامل وزملاؤه: ص١ ؛ حاطوم، المدخل التاريخي: ص٣١٢ ؛ المكي، الفكر الفلسفي عند ابن خلدون: ص١.

(٤) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون: ص٣ ؛ المدخل التاريخي: ٣١٢، مصدر سابق.

(٥) ابن خلدون، المقدمة: ص٣؛ ابن خلدون، التعريف بابن خلدون: ص٣؛ منهج النقد التاريخي: ص٢٦٨، مصدر سابق.

(٦) ابن خلدون، المقدمة: ص٣.

(٧) عبدالرحمن بن خلدون، مصدر سابق ١٣: ٢٤٨٠.

(٨) الفكر الفلسفي عند ابن خلدون: ص١.

(٩) الموسوعة الفلسفية المختصرة: ص٣١٢؛ الموسوعة العربية الميسّرة ١: ١٤.

(١٠) مقدمة في مناهج البحث التأريخي: ص٣٠٧.

(١١) الموسوعة العربية الميسّرة ١: ١٤.

(١٢) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون: ص٤.

www.noormags.ir

(١٣) المصدر السابق: ص٦.
(١٤) المدخل التاريخي: ص٣١٢.
(١٥) عبدالرحمن بن خلدون، مصدر سابق ١٣: ٢٤٨٠؛ مقدمة في مناهج البحث التأريخي: ص٣٠٨.
(١٦) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون: ص١٧.
(١٧) عبدالرحمن بن خلدون، مصدر سابق ١٣: ٢٤٨٠.
(١٨) الموسوعة الفلسفية المختصرة: ص٤١٣.
(١٩) مقدمة في مناهج البحث التأريخي: ص٣٠٨.
(٢٠) الموسوعة الفلسفية المختصرة: ص ٣١٤-٣١٥.
(٢١) عبدالرحمن بن خلدون، مصدر سابق ١٣: ٢٤٨٠.
(٢٢) الموسوعة الفلسفية المختصرة: ص٣١٥.
(٢٣) منهج النقد التاريخي: ص ٢٧٠.
(٢٤) الموسوعة الفلسفية المختصرة: ص٣١٥.
(٢٥) عبدالرحمن بن خلدون، مصدر سابق ١٣: ٢٤٨٠؛ منهج النقد التاريخي: ص ٢٧٠.
(٢٦) الموسوعة العربية الميسّرة ١: ١٤.
(٢٧) الفكر الفلسفي عند ابن خلدون: ص١٥.
(٢٨) منهج النقد التاريخي: ص ٢٧٠ ؛ الموسوعة الفلسفية المختصرة: ص٣١٥.
(٢٩) الفكر الفلسفي عند ابن خلدون: ص١٥- ١٦.
(٣٠) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون: ص٢٦٣؛ منهج النقد التاريخي: ص ٢٧٠.
(٣١) عبدالرحمن بن خلدون، مصدر سابق ١٣: ٢٤٨٠.
(٣٢) الفكر الفلسفي عند ابن خلدون: ص١٧.
(٣٣) بروكلمان، تأريخ الشعوب الإسلامية : ص٣٣٧؛ منهج النقد التاريخي: ص ٢٧١.
(٣٤) عبدالرحمن بن خلدون، مصدر سابق ١٣: ٢٤٨٠.
(٣٥) الموسوعة الفلسفية المختصرة: ص١٠؛ تاريخ الشعوب الإسلامية: ص٣٣٧.
(٣٦) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون: ص٣٤٢.
(٣٧) عبدالرحمن بن خلدون، مصدر سابق ١٣: ٢٤٨٠.
(٣٨) الموسوعة الفلسفية المختصرة: ص٣١٧؛ منهج النقد التاريخي: ص ٢٧١؛ مقدمة في مناهج البحث التأريخي: ص٣٠٨.
(٣٩) الفكر الفلسفي عند ابن خلدون: ص١٨.
(٤٠) ويد جيري، المذاهب الكبرى في التاريخ: ص١٣٥.
(٤١) سورة سبأ: ٢٨.

www.noormags.ir

(٤٢)سورة الأنبياء: ١٠٧.

(٤٣) سورة المائدة: ٤٨.

(٤٤) سورة النساء: ١٠٥.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

www.noormags.ir

(٧٢) سورة الأحقاف: ١٢.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

www.noormags.ir

(٩٩) ابن خلدون، المقدمة: ص١٩٦- ١٩٧.
(١٠٠) المصدر السابق: ص١٩٧.
(١٠١) سورة الشعراء: ٢١٤.
(١٠٢) النسائي، خصائص أمير المؤمنين: ص٩٧-٩٨؛ الطبري، تأريخ الرسل والملوك ٢: ٣١٩-٣٢١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢: ٢٢؛ ابن كثير، السيرة النبوية: ص ٤٥٨-٤٥٩.
(١٠٣) ابن خلدون، المقدمة: ص١٧٩؛ وقد ورد نص الرواية في ابن هشام، السيرة النبوية ٤: ١٤٨؛ النسائي، خصائص أمير المؤمنين: ص١٠٩؛ سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص: ص٤٢-٤٣؛ الإربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة ١: ٢٩٥.
(١٠٤) ابن خلدون، المقدمة: ص١٩٧.
(١٠٥) آل ياسين، الإمامة: ص٤٦.
(١٠٦) البخاري: صحيح البخاري ٨: ١٢٧.
(١٠٧) الإمام مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ١٢: ٢٠١.
(١٠٨) الترمذي، الجامع الصحيح: ص٦٠٩.
(١٠٩) ينظر إلى نص الحديث إضافة إلى كتب الصحاح: ابن حبان، الثقات ٧: ٢٤١؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين ٣: ٦١٨؛ الطبراني، المعجم الكبير ٢: ١٩٦؛ آل ياسين، الإمامة: ص٤٦.
(١١٠) ابن خلدون، المقدمة: ص١٩٧.
(١١١) المصدر نفسه.
(١١٢) المصدر السابق: ص١٩٨.
(١١٣) المصدر نفسه.
(١١٤) المصدر السابق: ص٢٠٢.
(١١٥) المصدر السابق: ص١٩٧.
(١١٦) المصدر السابق: ص١٩٩.
(١١٧) المصدر نفسه.
(١١٨) الترمذي، الجامع الصحيح: ص٦١١.
(١١٩) المصدر نفسه.
(١٢٠) ينظر: مؤسسة النشر الإسلامي، أحاديث المهدي: ص٣٤-٧٦.
(١٢١) المستدرك على الصحيحين ٤: ٥١٤؛ الكنجي الشافعي، البيان في أخبار صاحب الزمان: ص٥٠٥؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٥: ٢٥٣.
(١٢٢) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر ١: ٣١٤.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

www.noormags.ir